ما العمل الآن؟ الجواب عند القوى الشعبية العربية!

من السهل في مثل الظروف القاسية التي نمر بها اليوم أن نصف تفاصيل المآسي التي نتعرض لها نحن الفلسطينيين، وأن نحلل عناصر المؤامرة التي تحاول تصفية ما تبقى من القضية الفلسطينية على منعطف القرن الحادي والعشرين. أما الشيء الصعب فهو الإجابة على سؤال : ما العمل الآن؟

والمقصود طبعا بالسؤال هو : ما الجديد الذي يجب عمله؟ إذ إن الوقت الذي مضى منذ تفجرت انتفاضة الأرض المحتلة حتى الآن، اشتمل على أعمال شتى شاركت فيها شرائح الشعب العربي الفلسطيني كافة، من مظاهرات ومواجهات بالحجارة واعتصامات وعرائض واحتجاجات. وإذا كان عدد الشهداء والمصابين مؤشرا على حجم الجهد المبذول فالله يشهد أن الشعب الفلسطيني المعطاء المتمرس بالتضحيات اقتحم القرن الجديد بما لا مزيد عليه من المثابرة والثبات والإصرار على العطاء بقدر يفوق النسبة المنتظرة من شعب صغير التعداد قليل الموارد والإمكانات.

ولن نقول إن لهذا الشعب طاقة لا يتعداها وقدرة لا يتجاوزها. ولكننا نقول إن الحلف القائم ضد قضية العرب والمسلمين التي وقف هذا الشعب على ثغرها حلف ضخم يمارس عدوانا مزدوجا.. على الأرض الفلسطينية التي يحتلها أو يظاهر على احتلالها.. وعلى الثروات العربية التي ينهبها ويستمر في نهبها.

فإذا لم يكن العرب في وارد الدفاع عن فلسطين التي هي جزء من ديارهم، فإنهم يجب أن يهبوا متحدين لتصحيح العلاقة بينهم (كنقابة بائعي نفط) وبين الولايات المتحدة المشترية بأبخس الأثمان. وفي اللحظة التي يفلحون فيها في ذلك يكونون قد أدوا جزءا هاما من واجبهم تجاه إخوانهم الفلسطينيين، لأن نسبة من الهبات الأمريكية السخية المستديمة لإسرائيل تغترف من أرصدة العرب في الولايات المتحدة (بما في ذلك ما يوهب لإسرائيل من الدبابات والطائرات والصواريخ الحديثة الموجهة بالأشعة التي تنزل على رأس الفلسطينيين في الليالي السوداء). فأضعف الإيمان يقتضي أن لا يكون المال العربي سلاحا في يد المعتدي الصهيوني.

هذا شئ يعرفه الصغار والكبار في بلادنا، ليس منذ الآن وإنما منذ خمسين سنة على الأقل. وواجب القوى الشعبية في الوطن العربي أن تقوم مجددا لفرض إرادتها ووزنها في المعادلة القائمة في المنطقة. ويمكنها أن تفعل ذلك من خلال بوابة فلسطين. فقد مضى على حالة الارتباك والشلل الفكري والمسلكي التي أعقبت انحلال الاتحاد السوفييتي عقد كامل من السنوات. وإذا لم تستجب الأحزاب والحركات والجبهات والأطر النقابية والجماهيرية المعروفة ولم تتجاوب مع ما يطلق عليه (الشارع العربي) وهو مصطلح حقيقي بقدر ما هو غامض فإن أول من سيسقط هو هذه المؤسسات الشعبية. لأن دورها يكون قد انتهى، وأصبحت مجرد زائدة من زوائد الأنظمة الرسمية.

متى سيتحركون؟!

من هنا نتلفت إلى الأحزاب والتشكيلات الشعبية الفلسطينية على اختلاف ألوانها، ونقصد بها تحديدا تلك التي هي جزء من تشكيلات عربية أو إسلامية أوسع، ونسألها : أين إسهام إخوانكم أو رفاقكم في المعركة؟ متى سيتحركون؟ كيف سيساعدون؟ ألم يهتدوا إلى مهمة

يقومون بها وواجب يضطلعون به؟ ألا يرون أن ساعة الحسم قد اقتربت وأن حلف الأشرار ماض قدما في مشروع هدم الأقصى؟ ألا تحركونهم إذا لم يتحركوا من تلقاء أنفسهم؟ وأية مصداقية تبقى لهم (أو لكم مع عدم المؤاخذة!) إذا لم تضعوا الشعارات النظرية التي حملتموها وحملوها موضع التنفيذ في ساعة البلاء؟ نحن في أمس الحاجة إلى أفعال ومبادرات ومشاركات انتفاضية في الوطن العربي والعمق الإسلامي. ومصدر هذه الأمور ومنبعها هو الشعوب والمنظمات الشعبية شبه المشلولة شبه الغافية، ومنها ينتقل التأثير إلى الأعلى. وفي هذه المرحلة من المواجهة والصدام ينبغي التركيز على مسألة استثارة الدور الشعبي العربي والمشاركة الشعبية العربية إلى جانب الفلسطينيين. فلقد كانت القوى الشعبية العربية عبر جميع المراحل السابقة طرفا معنيا بالقضية وبالصراع على الرغم من الحدود التي فصلت بين أجزاء الوطن الواحد الكبير. وينبغي كسر الحاجز النفسي الذي يحول دون الشباب العرب المؤمنين وواجبهم في المشاركة بالتصدي لشارون ولمن يقف وراء شارون.

فالاكتفاء بالإشادة بنضال الفلسطينيين، والقيام ببادرات احتفالية وإعلامية من شأنها جذب الشبيبة إلى صفوف الأحزاب في العواصم العربية من خلال اليافطات المرفوعة والحناجر الملعلعة، والاتكاء على فكرة كون الفلسطينيين الأبطال قادرين على الصمود إلى ما لا نهاية، ليس هو القسط من النضال الذي يؤدي إلى أي نفع حيال خطورة عامل الوقت حاليا، وحيال ضخامة الحلف المعادي.

خطة ذات تفاصيل كاملة

نقصد بخطورة عامل الوقت أكثر من معنى واحد من المعاني. وأولها أن الإسرائيليين يعملون وفقا لبرنامج زمني يرمي إلى فرض الحل الصهيوني للقضية الفلسطينية بأسرع وقت، قبل أن يتغير مع مرور الوقت شكل ميزان القوى القائم (ويقوم الحل الصهيوني على اقتلاع أكبر عدد من الفلسطينيين إلى خارج الحدود وتهويد أوسع مساحة من الأراضي من خلال استعمارها وسكنها). والمعنى الثاني أن الحكومات الإسرائيلية كلها، على تعاقبها، اتخذت من اللعب على الوقت وسيلة ناجعة لوضع الحل الصهيوني موضع التطبيق. فلم تصدق أية حكومة في الوفاء بالالتزامات التي رتبتها على نفسها في الاتفاقات المرحلية. بل جعلت من هذه الاتفاقات مجرد (حيلة) لإغراء الفلسطينيين بنبذ المقاومة والكفاح. وراحت تشاغلهم خلال عشر سنوات على الأقل باجتماعات لا تنتهي وأبحاث لا تصل إلى نتيجة، بينما هي ماضية في أشغالها الحقيقية : انتزاع الأراضي وبناء المستوطنات وإجلاء أهل البلاد عن أراضيهم ومزارعهم ومراعيهم واستجلاب قادمين يهود أو محسوبين على اليهود من كل مكان إلى هذه الأرض. ومن الملاحظات التي لم تفت المراقبين أن فترة الاتفاقات والمفاوضات هي التي شهدت أعلى نسبة من الاستيطان والاقتلاع ومصادرة الأراضي العربية. أما المعنى الثالث من معاني خطورة عامل الوقت فهو برنامج شارون بوش ذو المائة يوم لإتمام عملية التدمير الشاملة التي بادر بها في البداية إيهود باراك ثم جاء شارون ليضفي عليها نكهة أشد زناخة وقسوة ووحشية ودهاء من سالفه. ووقف شارون في الأسبوع الماضي عند مستعمرة ناحال عوز، وهي في الأساس قطعة من أراضي حي الشجاعية شرقي مدينة غزة، يقول باختصار : ((لدينا خطة ذات تفاصيل كاملة نقوم بتنفيذها وهي تتطلب الصبر فقط)). وتطبيقا لتلك الخطة يقوم شارون وجيشه كل يوم بقتل المزيد من البشر وهدم المزيد من المساكن وتجريف المزيد من الأراضي وتدمير المزيد من البنية التحتية التي سبق لقوات الاحتلال أن أنهكتها واستهلكتها

خلال احتلالها الثقيل الطويل سبعا وعشرين سنة، دون أن تجري صيانة لأي مرفق من المرافق في المناطق المحتلة. إن الجراد نفسه يعجز عن إيقاع خراب يعادل هذا الخراب أيها المجرمون.

النقاط الأربع المفتعلة

ويقول شيمون بيريس ذو الوجه الكالح : إنه بصدد محادثات مع الفلسطينيين تتناول أربع نقاط. وكلها نقاط مفتعلة (وهي وقف العنف ووقف التحريض والعودة إلى مائدة المفاوضات)، وهي تعيد الطرفين إلى المربع الأول. ومن الواضح أن هذا العدو القديم اللدود للعرب والذي أعاد إظهار وجهه النحاسي أخيرا، ينوي مفاوضة الفلسطينيين منذ الآن وحتى يتدلى في قبره. مزايدا على شامير الذي قال بعد خروجه من الحكم قبل عشر سنوات إنه كان ينوي أن يستمر في مفاوضة الفلسطينيين عشر سنوات.

كلهم يشاغل العرب ليحظى بهدوء الخاطر الذي يساعده على التفرغ لاستخلاص الأراضي بصمت وإقامة المستوطنات والطرق التي تخدمها واكتساب الشعبية الانتخابية لدى جمهور غاصب طامع يعد منجزات النهب والسلب منجزات وطنية مقدسة. وكلهم يعد العرب أهدافا مباحة لرماية سلاحه. والواقع أن هذه الوزارة الأسوأ في تاريخ إسرائيل وقد يجيء مع ذلك ما هو أسوأ منها أثبتت أنها الأقدر أيضا على خداع الناس في الشرق والغرب عن أغراضها الحقيقية. وما رفضها ورفض رب الفيتو الأمريكي قرار تعيين مراقبين دوليين لحماية الفلسطينيين العزل إلا نوع من أنواع التحايل على الوقت ليتاح للأكثر تطرفا بين الحكومات أن تمارس أكثر عمليات احتلال واقتلاع واستيطان، وليتاح لشارون أن يضع على التاريخ الإسرائيلي بصمته الخاصة، وذلك باستجلاب مليون يهودي جديد إلى فلسطين المحتلة وإسكانهم فوق أنقاض الفلسطينيين. وفي تقدير شارون أن الأزمة الكبرى في كيان دولة الاحتلال هي أزمة الحاجة إلى مزيد من العساكر اللازمين في رأيه للانتشار في إسرائيل الكبرى.

هذه هي خطورة عامل الوقت في بعض تجلياتها، وقد يكون من المناسب أن نضيف شيئا آخر يتجاوز فلسطين إلى المنطقة وعمقها. فهناك مصلحة مشتركة بين إسرائيل (التي لا تريد أن يكون أي قطر عربي أو إسلامي مالكا لقوة تستطيع أن توازن قوة إسرائيل)، وبين الولايات المتحدة (التي لا تريد أن يطرأ أي تغير على موازين القوى الراهنة التي سمحت لها بالهيمنة المطلقة على جميع القارات وعلى آسيا بشكل خاص). وإذا قدر لإسرائيل أن تفرغ من أمر الفلسطينيين، فسوف تنتقل إلى غيرهم، بعد أن تضغط على الولايات المتحدة للتحرك العنيف بحجة مكافحة الإرهاب الإسلامي. وأعتقد أن الأنباء التي تحدثت عن قنبلة ذرية ذات مواصفات خاصة يجري تصنيعها في أمريكا لضرب العراق هي شيء من هذا القبيل.

لا يستطيع أن يربك هذه الاستراتيجية إلا استراتيجية مقابلة تشترك فيها المنطقة، بتشكيلاتها الشعبية أساسا، بحيث لا يستطيع الإسرائيليون والأمريكيون أن ينفردوا بكل بلد على حدة، ولا أن يجدوا الفراغ الذي يزين لهم أن يعملوا على راحتهم بكامل صفاء ذهنهم وحشد قواهم.